# الثقافة الشعبية بين القبول والرفض

خليل علي حيدر

تنصرف أذهاننا جميعاً، عندما نتحدث عن «الثقافة»، إلى الثقافة الرسمية أو ثقافة الصفوة الرفيعة والجامعات وأهل العطاء الفكري والفني، ولكن الثقافة، كما قلنا في مقال سابق، تشمل كذلك عادات وتقاليد المجتمع وطرقه المعيشية، وتشمل كذلك التراث الفكري الشعبي، الذي لا يرتبط بالضرورة بانتشار التعليم والجامعات والمفكرين، ويظل موازياً مجاوراً للثقافة الرسمية وفكر الصفوة.

ويرى أحد الباحثين أن الثقافة الشعبية هي التي ينتجها «العامة»، وتكتسب الثقافة الشعبية صفتها هذه نتيجة أن عامة الشعب هم الذين ينتجونها ويستهلكونها. فإنجازات الثقافة الشعبية هي إبداع «جمعي» ينتمي إلى جموع هؤلاء العامة ولا ينسب إلى أفراد بذواتهم. أما الثقافة الرسمية فتكتسب صفتها لكونها من إنتاج أفراد ينتمون أساساً إلى المؤسسات النظامية الرسمية، وهذه المؤسسات النظامية الرسمية تستبعد عموماً، الثقافة الشعبية، وتنظر إليها نظرة نافية إما باعتبارها ثقافة مشوهة متخلفة، تنتمي إلى ماض يجب تخطيه، أو لكونها «لا ثقافة» كلياً.

وتثير «الثقافة الشعبية»، إنْ افترضنا فيها السطحية والعامية والفجاجة، أسئلة كثيرة في الواقع، بحاجة إلى دراسات عديدة. فما هي حدود التداخل والاستقلال بين الثقافة العربية العامة أو الرسمية، وسائر الثقافات الشعبية العشرين أو أكثر، في العالم العربي؟ وهل يحسن بالكاتب الروائي مثلاً أن يستخدم العامية في بعض رواياته للتعبير عن الواقع المعاش، أم أنه يستطيع الاستغناء عنها؟ وإذا أكثر من العامية، كيف يستطيع التواصل مع بقية القراء خارج الوطن؟ وإذا ما قمعنا مثل هذا المنحى، فماذا نفعل بالغناء والدراما؟

وقد نتساءل: هل الأغنية الفصيحة، أو حتى القصيدة العربية، أكثر قدرة على التعبير وأصدق في رسم المشاعر وأقرب إلى أذن المستمع؟ فنحن نتابع الكثير من الأغاني والقصائد بالعاميات المصرية واللبنانية والخليجية، وكذلك الأعمال الدرامية في التلفاز، ونسلم بوجود شعر شعبي في غاية القوة والمتانة والتأثير، كشعر مظفر النواب وأحمد رامي وغيرهما، وقد تؤثر فينا كلمات أغاني فيروز وتصل إلى أغوار في مشاعرنا لا تصل إليها كلمات القصائد الفصيحة، التي نشعر أحياناً بأنها لا تنتمي إلى عالم القناديل الشاحبة والثلج المنهمر ودروب الضيعة المحية.. ومختار المخاتير!

وقد يتساءل باحث، هل الثقافة الشعبية منحدرة إلينا من ثقافة بدائية للتجمعات البشرية الأولى والقبائل والقرى و«النجوع» ورحلات الخليجيين البحرية للغوص والتجارة، أم أنها، كما اعتبرها البعض، أصداء مشوهة لثقافة عربية أدق منها، وصورة غير أمينة، لأصل عجزت الأدوات الشعبية عن التقاطها؟. ونصل أخيراً إلى سؤال سياسي كثيراً ما يطرح، فهل تشجيع «الثقافة الشعبية» وتوسيع نشرها، يزيد العالم العربي انقساماً وتفرقاً، فقمعها إذن بعض مستلزمات «الأمن الثقافي»، أم ترى أن انتشار مثل هذه الثقافات الشعبية يشجع التعددية في الواقع، ويسند حقوق الأقليات والتقاليد المهددة بالانقراض؟ويدرس عبدالحميد حواس، الأستاذ بالمركز القومي للفنون الشعبية بالقاهرة، «مواقف المثقفين من الثقافة الشعبية، فيرى فيها ستة توجهات مختلفة:

١- فقد رأى دعاة التغريب في ظواهر الثقافة الشعبية مظهراً من مظاهر التخلف، يقف حجر عثرة في طريق التمدين والتحديث (وفق النموذج الأوروبي الغربي)، ومن ثم يجب إزالتها واستبعادها من حياتنا، ومن رأى منهم في بعض ظواهر الثقافة الشعبية شيئاً جديراً بالاهتمام فإنما لطرافة هذه الظواهر طرافة متحفية!

٢- ويلتقي مع دعاة التغريب في موقفهم، يقول الأستاذ حواس، دعاة الأصولية السلفية والنقاء الديني واللغوي، فالثقافة الشعبية، من هذا المنظور، تحريف لأصل قديم ينتمي إلى عصر ذهبي مضى وتشويه له. وقد حدث هذا التحريف وذلك التشويه نتيجة لضلال العوام وأوهامهم، ومن ثم يجب التخلص من هذا الضلال والوهم والتشويه توطئة لاستعادة الأصل النقي الصحيح.٣- ورأى دعاة القومية العربية، وبخاصة في صورتها الغالبة، في ظواهر الثقافة الشعبية مظهراً من مظاهر التفكك القومي، يؤكد عوامل الفرقة ويدعم «الشعوبية». ومن هنا يجب محاصرتها تمهيداً لإلغائها. فالثقافة العربية الجامعة، في تقدير هذا الاتجاه، هي «التراث»، أي مأثور الثقافة الرسمية الفصيح وحده.

٤- أما أصحاب النزعة الوطنية، فقد رأوا في ظواهر الثقافة الشعبية مظهراً من مظاهر الأصالة الوطنية، ومجالاً للتمجيد الرومانسي لكل نص قد يعثرون به، وقريب من هؤلاء دعاة الانفصال والتمركز الثقافي والمروجون للخصوصية والتفرد في أنحاء متباينة من الأقطار العربية.

٥-وتراوح موقف الماركسيين من الثقافة الشعبية: من الرفض والاستبعاد، باعتبار أن مكوناتها وعناصرها تحوي الكثير مما هو مزيف للوعي أو معوق للوعي الصحيح، إلى الإشادة بهذه الثقافة على أساس إقامة ترادف بين نسبة الشعبية والشعب بالمعنى السياسي، فكل ما هو «شعبي» له مكانة سياسية خاصة متميزة في الثقافة اليسارية عموماً.

٦- وتحت تأثير الفكر التنموي بمنحاه الاقتصادي تشكل تيار، معظمه من الأكاديميين، ينوه بأهمية التعرف على مكونات الثقافة الشعبية، ولكن على أساس قدرتها والدوران حولها والتكيف معها لضمان نجاح الخطط التنموية. (انظر: الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع، بيروت، ١٩٨٧، ص٤٠٤).

ويلاحظ الباحث نفسه أن الأدب الشعبي، مع أنه جزء من الثقافة الشعبية ولون من ألوان إبداعاتها، كان وما زال أكثر حظاً في الالتفات إليه من كثير من أنواع الثقافة الشعبية وألوان إبداعها، فقد حظي باهتمام نسبي من الدوائر المثقفة ومن الدارسين ومن أجهزة الدولة ومؤسساتها الرسمية، وخصصت له أكثر من جامعة أستاذية أو مقرراً دراسياً. ولكن هل كان هذا «الاهتمام الإحيائي» مفيدا دائماً للثقافة الشعبية؟ أم أن الانتقاء والتجديد والاقتباس قد شوه هذه الثقافة ووضع مدلولاتها في إطار مختلف؟

فثمة شكوى دائمة من هذا «التشويه والتلاعب» بالتراث الشعبي والأصالة الموروثة، وقد تقع الثقافة الشعبية ضحية لبعض المسؤولين الرسميين الذين يترفعون عليها ولا يقدرون جوانب الجمال فيها بل ربما يعادونها! فالثقافة الشعبية لبعض هؤلاء «لا ثقافة»، ومن ثم فإن «أصحابها يعانون فراغاً ثقافياً»، ومن ثم وجوب شغل هذا الفراغ واحتلاله بـ«ثقافة أرفع». وأفدح من كل هذا أثراً، يقول «حوّاس»، «إن أصحاب الثقافة الشعبية أنفسهم أخذوا يتشربون هذه المفاهيم، ويقتنعون بها، ويستشعرون دونية ثقافتهم إزاء الثقافات الأخرى، بل ويصلون في غير حالة إلى إنكارها، أو التنكر لها، لدرء التوهم أن هذا قد يصمهم بالتخلف أو الانحطاط الاجتماعي والفكري».

على أية حال، يدخل التفاعل أو الصراع بين «الثقافة الرفيعة الفصحى» ومعها الأدب العربي شعراً ونثراً من جانب، و«الثقافة الشعبية العامية» ومعها آدابها الشعرية والغنائية والدرامية وأمثالها وغير ذلك من جانب آخر، في مرحلة شاملة جديدة اليوم بسبب هذا التقدم المذهل في وسائل الاتصال العامة المهيمنة اليوم على جماهير كل الدنيا.

ومن غير المعقول أن يعتقد أي منا أن الثقافة الشعبية تقتبس دائماً من أختها الرسمية أو الرفيعة، فلا شك أن الثقافة الشعبية، كلاماً وفناً وشعراً ودراما، تؤثر بشدة في الحياة الثقافية العامة وحتى في الثقافة العربية الرفيعة السائدة، وما تنافس العامية بل وطغيانها على الفصحى في الجامعات والإعلام، كما يشتكي بعض كبار المثقفين العرب، إلا صورة من هذا الواقع.

ومن المعروف أن الثقافة الشعبية تعتمد على بعض السمات كانتقالها شفاهاً، وعدم تدوين كل تفاصيلها، بل ربما لا يمكن تدوين كل ما تتضمن، وذلك لأسباب مختلفة، وهنا يلاحظ الباحث، الأستاذ حواس، انتعاش «الشفوية» من جديد في الثقافة الشعبية وتقهقر «الكتابية» أو تراجعها للخلفية نسبياً.

ويلاحظ أن البث الإذاعي والتلفزيوني، بإمكاناتهما الحديثة والمتجددة، قد زحزح قيمة الكتاب والصحيفة ودفعهما إلى الخلف، وأغنى شريط الكاسيت والفيديو كاسيت المواطن العامي عن كتابة الخطابات ونحو ذلك، ولم يكن عالم ١٩٨٧، عندما نشر الكتاب، يعرف الإنترنت والفضائيات على ما هو عليه اليوم!.

## من المحرر

### في ذكرى مصطفى جواد وجهوده الفلكلورية

باسم عبد الحميد حمودي

في السابع عشر من تشرين الأول سنة ١٩٦٩ انتقل الى رحمة الله العلامة الدكتور مصطفى جواد وهو واحد من اعمدة الثقافة الشعبية والتراث الشعبي في العراق.

ان قائمة أولية بدراسات مصطفى جواد الخاصة بالثقافة الشعبية تجعلك موقناً بأنك أمام عالم وحجة فيه مازال الدارسون يأخذون منه وينهلون دون اعتراض كثير او تصويب الا ما ندر، فقد كانت دراسة الدكتور جواد عن (الفتوة منذ القرن الأول الهجري حتى القرن الثالث عشر) التي نشرها كمقدمة لتحقيقه كتاب (الفتوة) لابن المعمار البغدادي بصفحاتها الـ٩٤ أساساً لدراسة د. محمد رجب النجار عن الشطار والعيارين وكانت دراسته المشتركة مع د. أحمد سوسة التي صدرت تحت عنوان (دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً) مع الخارطة التي قام بطبعها المجمع العلمي العراقي عام ١٩٥٨ مصدراً أساسياً لبحوث العدد الخاص من مجلة المورد عن بغداد والعدد الخاص بمجلة التراث الشعبي عن مدينة المنصور الخالدة.

لقد حقق الأستاذ جواد بصبره ودأبه لا مخطط المدينة المدورة كما بناها المنصور بل أماكن الباعة وشوارع المدينة وقبائلها وأماكن سكناهم وأشهر الآثار والربط فيها، وقد بدأ كلف الدكتور جواد بالتراث الشعبي لا باعتباره معماراً شعبياً فقط بل لغة ومثلاً شعبياً وأزياء شعبية ورجلاً وأبحاثاً أساسية في علوم السابقين وبذلك فقد كان مصطفى جواد هادياً لمن جايله وتبعه في العناية بأسس البحث وفي الكشف عن التبر بين التراب وفي أصول البحث الفولكلوري الأصيل وفي محاولة جمع الضائع المنسي من اغراض التراث الشعبي ومحاولة فلسفته.

فعلى صعيد اللغة الشعبية كتب الدكتور جواد بحثاً في مجلة لغة العرب في عددها الثامن لعام ١٩٣٠ تحت عنوان (اللغة العامية العراقية) ذكر فيه أسباب اللحن المألوفة ثم بجرأة نادرة رد الفصيح الى أصله ثم عاد في أيلول ١٩٦٣ ليكتب لنا بحثه الممتع عن (الشعر العامي العراقي القديم) في العدد الأول من مجلة التراث الشعبي الذي جمع فيه الوان الشعر الشعبي العراقي الذي كان يصر على تسميته بالعامي من مواليا وكان كان وقوماً ودوبيت وزجل متعرضاً الى أسسها، وقد سمى الدوبيت باسمه العربي/ المثناة وكان حذراً في تأويل الدوبيت الى عبودية ثم بوذية إضافة الى محاورته كبار المحققين، ثم جاء اهتمامه بالمثل الشعبي في كتابته مقدمة القصة التمثيلية التي الفها المقدم- آنذاك- عزيز جاسم الحجية وأصدرها عام ١٩٥٨ تحت عنوان (الما يوني يغرك) وقد حوت أمثلة شعبية بغدادية متعددة، وقد كانت مقدمة فقيدنا لهذا الكتاب مشيدة بجميع المثل الشعبي ومحاولة تفصيحه.

**قد كان الراحل الكريم أستاذنا د. مصطفى جواد في كل دراساته المكانية والمعمارية من الرواد الأوائل الذين وظفوا التاريخ كعلم في خدمة العمارة الشعبية كجزء من التراث الشعبي وكان في كل دراساته عن الازياء واللغة والشعر الشعبي عالما حريصا على ايراد المعلومة ومناقشتها وصولا الى الحقيقة بعد تحليل مواضعها واستخلاص النتائج وهو منهج أساس في أية دراسة أولية للتراث الشعبي العراقي (وغيره) وقد كان مصطفى جواد رائدا من رواده وعلما من اعلامه.**

وكان بحث الدكتور جواد المنشور في العدد الثامن من مجلة التراث الشعبي الصادر في نيسان ١٩٦٤ بعنوان (أزياء العرب الشعبية) لا طريفاً في بابه فحسب بل كان مصدراً أساسياً لدراسات اخرى تابعة منها دراسة د. نجلاء العزي عن (الملابس التقليدية للمرأة في الخليج) ودراسة د. صلاح العبيدي عن (الملابس الإسلامية) ودراسة ناصر حسين العبودي عن (الازياء الشعبية) الرجالية في دولتي الإمارات العربية وعمان) ودراسة ليلى صالح البسام عن (التراث التقليدي لملابس النساء في نجد)، وقد اشار د. جواد الى جهد المستشرق الهولندي دوزي ومعجمه المؤلف بالفرنسية والذي كان لما يترجم بعد، وأضاف له الكثير عن ملابس العراقيين كالهاشمي والبشت، وناقش ابن خلدون في نسبة الازرار الى العرب أم غيرهم ثم تحدث عن ملابس الفتوة حديثاً ممتعاً جامعاً لا محل لتفصيله هنا.

وجاءت دراسته عن الفتوة الشعبية في العدد الثالث من السنة الأولى لمجلة التراث الشعبي عام ١٩٦٣ مميزة لكنها تأتي خلاصة لمقدمته الواسعة لكتاب الفتوة لابن المعمار البغدادي الحنبلي.

ويأتي العدد الثاني من مجلة (بغداد والتراث الشعبي) الصادر بين حزيران- تموز/١٩٦٨ حاوياً دراسته عن (الشعبيات عند الجاحظ) لا ليعزز ريادة أبي عثمان في جمع وتوصيف المأثور الشعبي العربي القديم فقط بل ليعالج مصطلح الفولكلور في الدراسات الإنسانية القديمة وتسمية الاب الكرملي له بعلم القوميات واقتراحه تسمية بالشعبيات مبرراً التسمية او المصطلح بالبساطة والسهولة وصدق الدلالة.

وقد اشار جواد في بحثه هذا الى الرواد الأوائل في علم التراث الشعبي مثل ياقوت الحموي في (تخيلات العرب) والخالع الشاعر في كتابه (اراء العرب وأديانها) والمسعودي في مروج الذهب، وتعد دراسته هذه تأسيساً في تعريب مصطلح الفولكلور اقرب الى الدقة من بين المصطلحات المعربة الاخرى واكثر قرباً من المصطلح الذي اتخذته مجلة التراث الشعبي عبر تسميتها هذه.لقد بحث د. مصطفى جواد فضلاً عن تعريب المصطلح والمثل الشعبي والازياء والفتوة والشعر الشعبي واللهجة الشعبية الصيغة التالية من بنود التراث الشعبي وهي بند العمارة الشعبية وأسسها المعمارية والتاريخية وهو البند الذي قربه الى رجل الشارع العراقي الذي اعتز ببحوث جواد واستنتاجاته للمكان التاريخي والشعبي.ومن بحوثه التي نشرها في هذا المجال وقربها بعد ذلك الى المستمع والمشاهد عبر الإذاعتين المسموعة والمرئية بحوثه التي فهرس عشرين نص منها المغفور له د. محسن جمال الدين في مقالته المنشورة في مجلة (التراث الشعبي) العدد ٥ لسنة ١٩٧٠ عن (مصطفى جواد والتراث الشعبي).

لقد كان الراحل الكريم أستاذنا د. مصطفى جواد في كل دراساته المكانية والمعمارية من الرواد الأوائل الذين وظفوا التاريخ كعلم في خدمة العمارة الشعبية كجزء من التراث الشعبي وكان في كل دراساته عن الازياء واللغة والشعر الشعبي عالماً حريصاً على ايراد المعلومة ومناقشتها وصولاً الى الحقيقة بعد تحليل مواضعها واستخلاص النتائج وهو منهج أساس في أية دراسة أولية للتراث الشعبي العراقي (وغيره) وقد كان مصطفى جواد رائداً من رواده وعلماً من اعلامه.

## تداعيات تاريخية

# متى عرف الإنسان المرآة؟

آن ريتشارد

ترجمة: عصام عبد اللطيف أحمد

قلما نعثر على حاجة من حاجاتنا اليومية تحوم حول تاريخها ووجودها وعلاقتها بالإنسان اعداد كبيرة من الاحاجي والمعتقدات والتأويلات مثل ما يكتشف المرآة.

ولا مناص لنا من الاعتراف بما يلي في الاقل فيما بيننا وبين أنفسنا: اذا ما انكسرت او تحطمت بين ايدينا ومن دون قصد منا مزهرية عزيزة علينا فان ردود الفعل مهما عظمت لن تتعدى حدود الاسف الشديد او لعنة سوء الحظ والغفلة وسوء التصرف والأيام التالية بعد الحادث كفيلة بنسيان امر المزهرية او تذكرها بأسف يخف تدريجياً، لكن ما ان تتحطم مرآة فالامر يختلف تماماً ان البعض منا يذهب الى حد مقارنة ذلك بحلول كارثة بل ان بعض المبالغين في تفسير وتحديد الفواجع والشؤم لسبع سنوات متتالية لكننا على الاكثر من المعتدلين ازاء تقبل مثل هذه التوقعات ومع ذلك لا نستطيع حبس شعور شبه اكيد بأنه سيحدث ما يعكر صفوة الحياة بعد تحول المرآة الى حطام.

ثم اننا يجب ان نعترف كذلك بان هناك مخلفات متراكمة من اصدار الماضي السحيق ترقد في ركن ما من اعماق كل نفس بشرية وهي اصداء تخص المرايا بصفات وقدرات خارقة تكتنفها هالة من الغموض المثير والرهبة المشعة عبر صفحة المرآة، بل يوجد من الناس في انحاء متناثرة من المعمورة، من يعتقد بأن بإمكان المرآة ان تؤوي روح الشخص الذي كان معتاداً على تفحص صورته فيها او حتى امكانية تمييز الروح الشريرة او ملك الموت او اشباح متنوعة في المرآة مع حلول المساء، كما تؤكد احدى المعتقدات، لكن اشارة اخرى من جملة ما تناقله الناس عبر القرون تنص على امكانية استعراض الماضي والحاضر والمستقبل عبر المرآة انه لدور عظيم التأثير على النفس البشرية تقوم به رقعة صغيرة او كبيرة من المرايا.

تقدم المرآة خدمات جليلة إضافة لما مر ذكره سواء في مسائل الحب والزواج والحياة او في مسائل الموت والعدم وما يليها، فالفتاة الهنكارية على سبيل المثال تجتهد بكل وسيلة ليقف فارس أحلامها جنباً الى جنب معها أمام المرآة! ذلك لعقيدة متوارثة هناك تؤمن بحتمية القران بعد تلك (الوقفة) المشتركة أمام اللوحة التي عكست صورة الحبيبين كما ان سكان الريف في العديد من البلاد الأوروبية ما يزالون يتناقلون عقيدة قديمة جداً مفادها ان بإمكان الفتاة التعرف على شريك حياتها المنتظر على ضوء الشمعة مساء على ان تقوم بذلك اما ليلة التاسع والعشرين من كل تشرين أول او ليلة استقبال العام الجديد.

اما في رومانيا والمانيا فان كل فتاة مخطوبة يجب ان تحتفظ بمرآة صغيرة في جهازها وبذلك يضمن الزوجان الشابان زواجاً موفقاً وسعادة مدى الحياة ما دامت المرآة (التي تحتفظ بها الزوجة بكل عناية) سليمة ومعافاة لكن خطيبات الامريكان والانكليز واليونانيين يحرم عليهم التطلع في المرآة منذ الخطوبة والى ما بعد انقضاء ليلة الزفاف وان سولت لاحداهن نفسها ذلك وتجاوزت المحذور فعلى الزوجين التعسين توقع سوء الحظ والنحس طول الحياة فأي هذين النقيضين تختار؟.

ان ابتكار أول مرآة أطلاقاً هو مجهول المنشأ كما هو الحال بالنسبة لإشعال أول نار على الأرض الا انه من المؤكد بان الإنسان قد شاهد ملامحه بادئ ذي بدء في صفحة الماء الهادئ ولا شك ان تلك الظاهرة قد اثارت دهشة وخوف كل ناظر أول مرة الى صورته في الماء.

ويمكن تتبع اثر الطريق من الصورة على سطح ماء في بركة او نهر ما حتى العصر الحجري المتأخر كما تؤكد ذلك رقائق حجرية منعمة ولماعة تم العثور عليها في الحفريات الاثارية، اما ابان العصر البرونزي فقد حدق الناس في صفائح معدنية ناعمة السطوح وبراقة والمصريات الانيقات كن يكحلن عيونهن اللوزية منذ الالف الثالث قبل الميلاد أمام لوحات المرايا المعدنية، وعبرت تلك المرايا البحار من قصور الفراعنة والاثرياء المصريين الى اليونان والشرق.

وظهرت المرآة في الصين خلال القرن السابع وسرعان ما انتقلت من هناك الى كوريا واليابان لكن تلك المرايا لم تعد مجرد صفائح معدنية لماعة بل اصبحت تحفاً فنية نفيسة مصنوعة من الذهب والفضة ومطعمة بالعاج والاحجار الكريمة، وليس من شك في ان النسبة العظمى من اقتناء واستخدام هذا الابتكار مع تحسيناته وترفه، كانت وما تزال للمرآة في كل مكان وزمان.

ان المرآة بعد مرور الاف السنين على ابتكارها واستعمالها هي في متناول عامة الناس منذ زمن قصير نسبياً بينما كانت على مدى عمر طويل حصراً على القلة المنعمة المترفة وحسب فقد استخدمت نساء الطبقات الحاكمة وكبار الاغنياء المرايا في مصر واليونان وروما، ولو خطر لخادمة احدى سيدات المجتمع محاولة النظر في المرآة فانها تكون قد جنت بذلك على نفسها ولا نجاة لها من العقاب.. كيف لا وقد كانت المرآة تحظى بقدسية كرمز للشمس وافروديت وما عداها من ساحرات اوليمبيا، والمرآة هي الاداة التي توقد بها النار المقدسة أم ان السيدات الموقرات كن يحرمن الإناث من الخدم من لذة التطلع الى المرايا لئلا يكشفن معالم السحر والجمال في وجوههن.

اما أوروبا العصور الوسطى سيئة الصيت فقد أصدرت حكمها على مرايا العصر القديم كرموز للضلال، وبرغم كل شيء بقيت عيون نساء الفرسان والأمراء تعشق المرايا واللجوء اليها قبل الزوج والحبيب.

وملوك أوروبا وغيرها من القارات كانوا يتبادلون المرايا التقنة الصنع من نفيس المعدن كهدايا فيما بينهم لتعبر عن الود والاحترام.

ويرجع ظهور اول مرآة زجاجية في التاريخ الى نهاية القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر كانت بادئ الامر مصنوعة من صفائح معدنية لماعة تغطيها صفائح زجاجية ولأول مرة في القرن الخامس عشر أنتجت في ألمانيا كرات زجاجية منفوخة سكب داخلها سائل النيكل او القلاي وهي ما تزال مستعرة الحرارة وبعد هبوط حرارة الكرات تم تقطيعها الى ما يشبه العدسات المحدبة والتي تمكنت فيما بعد من عكس صور الأشياء بوضوح نسبي كاف، هذا عدا كون تلك الصورة صغيرة جداً (مصغرة على السطح المحدب).

وبحلول عام ١٥٠٧ تحققت ثورة في صنع المرايا وذلك حينما استطاع اثنان من الايطاليين في جزيرة مورانو قرب فنيسيا ابتكار طريقة جديدة لصنع المرايا فقد قطعت زجاجة اسطوانية الشكل منفوخة وطليت بملغم هو خليط من الزئبق ومعادن اخرى وبذلك ظهرت للوجود المرايا الايطالية ذائعة الصيت في التاريخ وأمنية كل امرأة آنذاك، كانت صقيلة ومتقنة الصنع وصورتها بالغة النقاوة شفافة وكبيرة وجذابة وقد اثرت فينيسيا على مدى قرن ونصف من السنين لاحتكارها سر صناعة المرايا هذه وهو سر حرسته وسهرت عليه بكل عناية ودقة.مئة وخمسون عاماً كانت تنقل المرايا الفينيسية الى بلاط كل ملك وأمير ووزير وثري بالمقابل كانت تعود الى فنيسيا حمولات الذهب والفضة كعوائد لهذه التجارة الرائجة، لذلك فقد خضع سر المهنة ومنتجو المرايا انفسهم لرقابة مشددة من قبل الشرطة والعسس، اما من حاول الهرب من المدينة فقد عرض نفسه للحكم بالموت وعرض عائلته للسجن والحرمان، ومثل تلك الاحكام كانت تسري على كل من حاول او تعمد إفشاء سر إنتاج تلك السلعة النفيسة، لكن فرنسا بلد الضلال والصخب والنساء الجميلات والرجال المتألقين صممت على إنتاج المرايا مهما كلفها ذلك فكان ان اعلن مدير الصناعة الفرنسية الوزير كولبرت حرباً باردة من أجل الحصول على سر المرايا عام ١٦٦٤ وكانت حرباً تخللها الرشاوى وغرقت في بحر من الابتزاز والسموم وافصال المدى الغادرة، دارت رحى الحرب بصمت رهيب بين الوكلاء والجواسيس والمرتزقة من الطرفين ولم تخل من صدامات دموية وهروب وتهريب وسرقات، ومع ان أهالي فنيسيا قد دافعوا عن اسرارهم وتجارتهم بنفس الوسائل وبضراوة لكن باريس تمكنت بعد عام واحد فقط من احتضان عشرين شخصاً من صانعي المرايا الايطاليين وذاع سر المهنة في فرنسا ولم يمنع ذلك مقتل اثنين من هؤلاء الايطاليين.

وتكررت هذه الحكاية وكانت فرنسا هي المدافعة هذه المرة عن اسرارها والهولنديون والالمان والاسبان هم المهاجمون من بلوغ الهدف.المرآة هي ذلك الشيء المحفوف بالاساطير والاسرار فلتخدم الشعراء والممثلين والاطباء والعلماء والنساء لكنها لن تكشف للجميع غير جزء يسير من سر جاذبيتها وسلطانها لتحتفظ ابداً بما تبقى من اسرار، فالإنسان مهما حاول واجتهد لن يمكن من رؤية ملامح وجهه الحقيقية في المرآة ذلك لانها تريه بالاحرى صورة معكوسة بل غالباً ما تضفي لوناً وبريقاً كاذبين وتكون سخية بذلك ازاء من يقضي أمام صفتها وقتاً طويلاً بلا ملل.